الفصل الثالث

الهجـــرة

أدرك كل شخص فى مكة أن محمدًا (ﷺ) أصبح مستباح الدم. لم يتخل أبو لهب عن واجبه كرئيس لبنى هاشم فى حماية محمد (ﷺ)؛ لأن ذلك كان يعنى ضعف قيادته منذ البداية، لكن كان واضحًا أنه يقوم برعايته بتذمر شديد. مارس جيرانه حيلاً قذرة معه، فألقوا عليه مخلفات خروف وهو يصلى، ومرة أخرى ألقوا بقاذورات فى قدر طهى العائلة. فى أحد الأيام، رمى شاب قرشى قذارة على محمد (ﷺ) أثناء مشيه فى المدينة، انفجرت ابنته فاطمة بالبكاء عندما رأت ذلك، فطمأنها محمد (ﷺ) برقة وهى تزيل عنه القاذورات«لا تبكى يا ابنتى الصغيرة، فإن الله مانع أباك». لكن أسر فى نفسه بحزن: «لم تعاملنى قريش هكذا عندما كان أبو طالب حيًا»:

> قال ابن إسحاق: فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله (ﷺ) من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابًا، ولما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله (ﷺ) ذلك التراب، دخل رسول الله (ﷺ) بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب، وهى تبكى، ورسول الله (ﷺ) يقول لها: «لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك». قال: ويقول بين ذلك: «ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب». [السيرة النبوية لابن إسحاق ـ ط دار الكتب العلمية: ص ٢٩٩][1].

أثروضعه المستباح على حالة بعض المسلمين الأكثر استباحة. على سبيل المثال، كادت المقاطعة تدمر أبا بكر. عاش أبو بكر فى منطقة عشيرة جمح، ورئيسها أمية بن

خلف البدين الذى اعتاد تعذيب بلال تحت الشمس المحرقة، كذلك تجرأ نوفل بن خويلد (أو عثمان بن عبيد الله فى قول آخر) لفعل الشىء نفسه مع أبى بكر، كان يربطه مع ابن عمه الشاب، ويتركهما تحت لهيب الشمس المحرقة. كانت تيم عشيرتهما أضعف من أن تحميهما، لذا أدرك أبو بكر أنه لن يكون له مستقبل فى مكة، فقرر الهجرة إلى الحبشة. وفى بداية طريقه للهجرة لقيه ابن الدغنة، أحد حلفاء قريش من البدو، الذى روعه سماع ما حدث. أصر على عودة أبى بكر إلى مكة تحت حمايته الخاصة. كانت مؤسسة قريش حريصة على تحالفها مع ابن الدغنة، فوافقت على هذا الترتيب، لكنها طلبت منه التأكيد على أن أبا بكر لن يصلى أو يقرأ القرآن علنًا. كان أبو بكر محبوبًا وذا شخصية جذابة، فخافت قريش أن يغرى الشباب على الخروج عن الدين الرسمى؛ لذا بنى أبو بكر مسجدًا صغيرًا أمام بيته ليتعبد فيه بمفرده.

لكن الحالة كانت غير مرضية على الإطلاق. حاول محمد (ﷺ) إيجاد حام جديد له فى الواحة الخصبة الطائف، لكنها كانت مغامرة عديمة الجدوى، كشفت مقدار يأسه، لأن ثقيفًا كانت قد أهينت بشدة عندما نبذ محمد آلهتها اللات. زار محمد ثلاثة من زعماء ثقيف، وطلب منهم قبول دينه ومد حمايتهم إليه، لكنهم رأوا فى ذلك وقاحة أغضبتهم وجعلوا عبيدهم يطاردونه فى الطرقات. أفلت محمد (ﷺ) بالدخول فى حديقة عتبة بن ربيعة، أحد رؤساء كفار مكة، الذى كان له بيت صيفى فى الطائف. رأى عتبة وأخوه شيبة هروب محمد (ﷺ) فى هوان، فلم يقبلا ترك قرشى فى أيدى ثقيف، لذا بدلاً من أن يبلغا ثقيفًا عنه، أرسلا إليه عبدًا بطبق كبير من عنب.

جلس محمد (ﷺ) بمهانة خلف شجرة، وكان على حافة اليأس. وقد كان مألوفًا للعرب أن يلجؤوا إلى إله أو جنى فى أوقات الأزمات، أما محمد (ﷺ) فقد لجأ إلى الله:

> قال ابن إسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال فيما ذكر لى: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». [السيرة النبوية: ص ٣٠١][٢].

لم يكن من المعتاد لابن إسحاق أن يروى بهذا التفصيل ماذا يدور بخلد محمد (ﷺ)، وتشير الرواية إلى لحظة الحقيقة الروحية. فى هذا الدعاء، سلم محمد (ﷺ) أمره لله، وأدرك تمامًا أكثر من أى وقت مضى، بأنه ليس له مجير ولا حام حقيقى إلا الله.

بدا أن الله استجاب لدعائه؛ لأن فور انتهائه منه، وصله عداس، عبد عتبة بعناقيد العنب. كان عداس مسيحيًا، ابتهج محمد (ﷺ) عندما علم بأنه جاء من نينوى، مدينة النبى يونس (ﷺ)، وأخبر عداسًا بأن يونس (ﷺ) أخوه، لأنه أيضًا نبى. جاشت عواطف عداس حتى أنه قبل رأس محمد (ﷺ) ويديه وقدميه، مما أدى إلى اشمئزاز عتبة الذى كان يراقب اللقاء. جعل هذا اللقاء غير المتوقع مع أحد أهل الكتاب محمدًا (ﷺ) أقل عزلة. ذكره ذلك بأنه بالرغم من أن العرب رفضوه، فهناك خارج الجزيرة العربية مؤمنون كثيرون قد يفهمون رسالته. عندما بدأ رحلة العودة إلى مكة شعر بالارتياح، وتوقف للصلاة فى الواحة الصغيرة نخلة، حيث سمعته مجموعة من الجن. كلمة جن لا تشير دائمًا إلى العفاريت غريبة الأطوار فى بلاد العرب، بل يمكن أن تشير أيضًا إلى «غرباء» أى ناس لم تسبق رؤيتهم. يشير القرآن إلى أن المسافرين، الذين كمنوا بعيدًا عن الأنظار فى نخلة، ليستمعوا إلى تلاوة محمد للقرآن ربما كانوا يهودًا. انبهروا بجمال ونظم القرآن العربى حتى أنهم عندما رجعوا لبلادهم، أخبروا أهلهم أنهم سمعوا «وحيًا أنزل من أعلى، بعد موسى» يؤكد حقيقة التوراة ويوجه البشر إلى الطريق الحق:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢]، ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [سورة الجن: ١][٣].

بدأت آفاق محمد (ﷺ) فى الاتساع. كان فى البداية متيقنًا من أنه قد أرسل كنذير إلى قبيلته خاصة وأن الإسلام كان فقط لأهل مكة. لكنه الآن بدأ ينظر أبعد، إلى أهل الكتاب الذين نزل عليهم الوحى سابقًا. برغم الثقة التى وفرها ذلك له، فإنه كان يائسًا. إذا علم الكفار بمحاولته الفاشلة للحصول على الدعم فى الطائف، سيكون موقفه أكثر خطورة، لذا قبل دخوله مكة، أرسل إلى ثلاثة رؤساء عشائر يطلب حمايتهم. رفض اثنان، لكن الثالث مطعم، رئيس قبيلة نوفل - الذى كان أحد الذين قاموا بحملة لإنهاء مقاطعة بنى هاشم - وعد بحمايته، وبذلك أصبح قادرًا على العودة إلى مكة.

لكن هذا لا يمكن أن يكون حلاً طويل المدى. كان عليه بطريقة ما أن يكسب قريشًا. فى عام (٣ ق. هـ/ ٦١٩م)، بدأ فى مخاطبة الحجاج والتجار الذين جاءوا للحج وأسواقه. فربما يجد حاميًا بدويًا، مثلما وجد أبو بكر، وإذا وجدت مؤسسة قريش أنه حصل على حماية حلفائها البدو، فقد تتعلم قبوله. لكن الحجاج البدو كانوا عدائيين ومهينين له. أبعد شىء أرادوه هو دين يوصى بالخضوع والتواضع. لا بد أن محمدًا (ﷺ) أحس أنه استنفذ كل ما لديه. ما زال حزينًا على خديجة، وأصبح وضعه فى مكة محفوفًا بأشد المخاطر، وبعد بضع سنوات، أو أكثر قليلاً من الدعوة، لم يحرز أى تقدم حقيقى. فى هذه الحالة المعنوية المنخفضة، مر بأعظم تجربة فى حياته.

كان يزور ابنة عمه أم هانئ التى كانت تسكن قرب الحرم، وقرر قضاء الليلة فى الصلاة أمام الكعبة، كما كان يحب أن يفعل. أخيرًا غلب عليه النوم لفترة.

ثم رأى أن جبريل أيقظه وحمله بشكل إعجوبى إلى القدس، المدينة المقدسة لدى اليهود والمسيحيين، وسجلت آيات القرآن ذلك:

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [سورة الإسراء: ١](٤).

لم تذكر القدس بالاسم، لكن بينت الأحاديث أن المقصود بالمسجد الأقصى مسجد بالقدس. طبقًا لما ذكره المؤرخ الطبرى(٥). وزعم القرآن أيضًا أن محمدًا شاهد رؤية بجانب سدرة المنتهى، التى تمثل حد المعرفة الإنسانية:

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [سورة النجم: ٨ـ١٨][٦].

وكلام القرآن متحفظ حول هذه الرؤية. طبقا للقرآن، رأى فقط آيات ورموزالذات الإلهية ـ وليس الله، وأكد المتصوفون لاحقًا التباين فى تلك الرؤية المتسامية، فى أن محمدًا (ﷺ) قد رأى، ولم ير الذات الإلهية.

يترك أكثر الكتاب الرؤية النهائية لله فى الغموض الموقر؛ لأنه كان وراء الوصف. وكان على محمد (ﷺ) أن يترك المفاهيم الإنسانية العادية، عند سدرة المنتهى، حد المعرفة الدنيوية. حتى جبريل لم يعد بوسعه أن يرافقه فى المرحلة العليا من رحلته. كان عليه أن يتخلى عن كل شخص، حتى نفسه، لكى يفنى نفسه فى الله، هكذا أصر الصوفيون اللاحقون. قصة رحلة الإسراء وقصة رحلة المعراج حدثت مرة، ولكنها يمكن أن تتكرر طوال الوقت، وهى تمثل الإسلام الخالص، تسليم الذات لله يمثل أيضًا العودة إلى منبع الوجود. أصبحت القصة نموذج الروحانية الإسلامية، تبين الطريق الذى يجب أن يسلكه كل البشر، بعيدًا عن أهوائهم، وإجحافهم، وقيود أنانياتهم.

لم تسفر الرؤية عن وحى قرآنى، فقد كانت تجربة شخصية للنبى (ﷺ) نفسه، لكن وضعها المؤرخون الأوائل فى تلك اللحظة من حياة محمد (ﷺ)، فكانت بمثابة تعليق رائع على السياق الداخلى لذلك الحدث الخارجى.

وقد أرغمت الظروف محمدًا (ﷺ) على ترك مكة وكل ما هو عزيز ومألوف له، على الأقل لفترة. فكان عليه أن يتحرك لأبعد توقعاته الأصلية، ويتسامى عن أفكار زمنه. يبدأ الشاعر عادة، فى القصيدة العربية التقليدية، بذكر محبوبته المفقودة، التى كانت تسافر مع قبيلتها بعيدًا، وبعيدًا عنه. فى القسم التالى، يبدأ الشاعر «رحلة ليلية» يندلع فيها حلم الحنين للديار. يبدأ رحلته المنفردة عبر السهول على جمله، رحلة مخيفة يواجه خلالها فناءه الخاص. أخيرًا يلحق الشاعر بقبيلته. فى القسم النهائى من

القصيدة يتباهى بالقيم البطولية لعشيرته، وبسالتهم فى المعركة، وحربهم المستمرة ضد كل الغرباء الذين يهددون بقاءهم[٧]. انعكست، فى رحلة محمد (ﷺ) الليلية (الإسراء)، قيم المروءة القديمة، فبدلاً من أن يعود إلى قبيلته، سافر النبى بعيداً عنها إلى القدس، وبدلاً من أن يؤكد هويته القبلية بتعصب الجاهلية المتغطرس، تخلص محمد (ﷺ) من الأنوية القبلية، وبدلاً من أن يبتهج بالقتال والحرب، حفلت رحلة محمد بالانسجام والتكامل مع بقية الإنسانية، وتسامت عن عصبية الدم.

تكشف قصة الإسراء تطلع محمد (ﷺ) لإدخال عرب الحجاز، الذين شعر بأنهم قد حذفوا من الخطة المقدسة، إلى قلب عائلة الموحدين. إنها قصة التعددية. كان محمد (ﷺ) يتخلى عن التعدد الوثنى لمكة؛ لأنه تدهور إلى التكبر المدمر للذات والعنف الجاهلى، وبدأ فى اعتناق تعددية التوحيد. اكتشف فى القدس أخوة كل رسل الله المبعوثين إلى كل البشر، لم ينظر الأنبياء السابقون إلى محمد (ﷺ) كمدع، بل رحبوا به فى عائلتهم. الأنبياء لا يتعادون ولا يحاولون تحويل بعضهم البعض عن رسالته التى يدعو إليها؛ ولكن يتدبرون رؤية كل منهم الخاصة. دعى الأنبياء النبى الجديد لبيان رسالته، وفى إحدى روايات قصة المعراج، يطلب محمد من موسى (عليهما الصلاة والسلام) النصيحة حول عدد مرات صلاة المسلمين فى اليوم والليلة[٨]. توضح حقيقة تقدير الديانات الأخرى فى الطراز المبدئى لروحانيات المسلم كيف تمثل التعددية محوراً رئيسيّاً فى الإسلام منذ بدايته.

من هذا المنطلق، بدأ القرآن يؤكد المشاركة فى الإيمان. وفى فقرات قرآنية رائعة، يوضح الله أن على المؤمنين ألاّ يميزوا بين وحى وآخر أو نبى وآخر:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ [سورة البقرة: ١٣٦]، وقوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾، [سورة البقرة ٢٨٥]، وقوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

﴿وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ٨٤][٩].

لا يمكنك أن تكون مسلمًا ما لم تؤمن بموسى وعيسى وبقية الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام). يطلب الإيمان الحقيقى استسلامًا كاملاً لله، وليس لأى مؤسسة دينية. وفى الواقع، ولاءً متعصبًا لتقليد واحد فقط يمكن أن يصبح شركًا، أى نوعًا من الوثنية التى تضع الأعراف الإنسانية فى مستوى الله ذاته. الآية ١٣٦ من سورة البقرة هى واحدة من أوائل آيات القرآن التى تؤكد معنى «إسلام» و«مسلم»، وكلاهما مشتق من الفعل أسلم[١٠]. تستمر الآيات:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

[آل عمران: ٨٥][١١].

هذه الآية يستدل بها فى أغلب الأحيان «لإثبات» أن القرآن يدعى بأن الإسلام هو الدين الوحيد الحقيقى، وبأن المسلمين هم الناجون فقط يوم الحساب. لكن لم يكن «الإسلام» بعد هو الاسم الرسمى لدين محمد (ﷺ)، وعندما نقرأ هذه الآية بشكل صحيح فى سياقها التعددى، فإنها تعنى بوضوح عكس ما يستدل عليه البعض.

يصور القرآن تسليم كل نبى الوحى إلى النبى الذى يليه، حيث تمر الرسالة من إبراهيم إلى إسماعيل وإسحاق وإلى موسى (عليهم الصلاة والسلام). وهكذا، فى تسلسل مستمر. القرآن ببساطة هو «تصديق» على الكتب المقدسة السابقة.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

[سورة يوسف: ١١١][١٢].

وما التوراة، والإنجيل، والقرآن، إلا لحظات مستمرة من تجلى الذات الإلهية للبشر، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ(*) وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(*) يرى البعض أن الصابئين هم طائفة من الموحدين فى جنوب الجزيرة العربية (اليمن اليوم)، ويرى البعض الآخر أن القرآن يشير بهذا الاسم إلى الزرادشتيين فى الإمبراطورية الفارسية ـ المؤلفة.

الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة المائدة:: ٦٩][١٣].

لم يكن هناك أى تفكير فى إجبار أى شخص لدخول أمة الإسلام، إذ لكل وحى شرعه ومنهاجه:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

[سورة المائدة: ٤٨][١٤].

لم يكن الله حكراً أو ملكية خاصة لناموس واحد، لكنه مصدر كل المعرفة الإنسانية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كما أوضح الله فى واحدة من أكثر الآيات رمزية فى القرآن. لا يمكن للنور المقدس أن ينحصر فى أى مصباح فردى، بل هو لكل البشر من خلال كل مصابيح الهداية(*):

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النور: ٣٥][١٥].

تدل شجرة الزيتون على استمرارية الوحى، التى تنبع من جذر واحد، ثم تتفرع إلى تجارب متعددة كأغصان الشجرة المباركة، ولا يحصرها التعصب لتقاليد أو محليات، وهى ليست شرقية ولا غربية.

استمر وضع محمد (ﷺ) فى مكة غيرمأمون بشكل خطير. أثناء الحج (عام ٢ ق. هـ/ ٦٢٠م)، زار محمد (ﷺ) مجدداً الحجاج الذين كانوا يخيمون فى وادى منى، حيث تنقل من خيمة إلى خيمة سعيًا وراء الدعم والحماية. والتقى بمجموعة من ستة من عرب يثرب، الذين خيموا على حدود العقبة، وجلس محمد (ﷺ) معهم فشرح رسالته وقرأ القرآن، وفى هذه المرة بدلاً من الرفض بالجملة، لاحظ أن الحجاج

(*) هناك حكمة قديمة مفادها: إن لله طرقًا بعدد خلقه.

كانوا منتبهين ومتقبلين لكلامه. وعندما انتهى من عرضه، التفت أحدهم إلى الآخرين قائلاً لا بد أن هذا هو النبى الذى ينتظره جيراننا من اليهود والأحناف. إذا كان محمد هو حقّا رسول الله، فقد يكون الشخص الذى يمكنه أن يحل مشاكل يثرب التى لا تحل.

لم تكن يثرب مدينة مثل مكة، لكن سلسلة من القرى الصغيرة، يسكن كل منها مجموعة قبلية مختلفة، وكل منها محصنة تمامًا[١٦]. كانت يثرب فى واحة، جزيرة خصبة حوالى عشرين ميلاً مربعًا، محاطة بالصخور البركانية والأرض الحجرية غير القابلة للزراعة. اشتغل بعض سكانها بالتجارة، لكن أكثرهم كانوا مزارعين، اعتمدوا فى معيشتهم على التمر، و بساتين الفاكهة، وحقول الزراعة. على خلاف قريش، لم يكونوا معتمدين كلية على التجارة، واحتفظوا بأكثر قيم البدوية القديمة، بما فيها، لسوء الحظ، عداوة راسخة بين القبائل.

نتيجة لهذا، انغمست الواحة فى سلسلة متفاقمة من الحروب التى تبدو متعذرة التوقف. كانت المنطقة مزروعة من قبل المستوطنين اليهود، وبحلول القرن السادس، كان هناك حوالى عشرين قبيلة يهودية فى يثرب، ربما كان العديد من أعضائها من العرب الذين ذابوا فى اليهودية[١٧]. احتفظوا بهوية دينية منفصلة، لكن ما عدا ذلك كان متعذرًا تميزهم عن جيرانهم الوثنيين. كان الولاء للعشيرة، ثم للقبيلة، ولم يكن هناك «جالية يهودية متحدة». شكلت القبائل اليهودية تحالفات منفصلة مع المجموعات العربية وكانت فى أغلب الأحيان فى حالة حرب بين إحداها والأخرى. وقد جعلهم محصولهم من التمر أغنياء، لكنهم أيضًا كانوا صناع جواهر ماهرين، وكذلك صانعى أسلحة، وحرفيين. احتكرت الخمس عشائر اليهودية الكبرى ـ ثعلبة، وهدل، وبنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع التى سيطرت على السوق الوحيدة فى يثرب ـ الاقتصاد احتكارًا شبه مطلق.

لكن أثناء القرن السادس، هاجرت قبيلة بنى قيلة العربية من جنوب بلاد العرب واستقرت فى الواحة، بجانب اليهود، وشكلوا عشيرتين متميزتين، الأوس والخزرج، اللتين أصبحتا بشكل تدريجى قبيلتين منفصلتين.

اكتسب العرب تدريجيًا أرضهم وبنوا قلاعهم الخاصة، وأصبحوا فى أوائل القرن السابع فى وضع أقوى قليلاً من اليهود. لكن على الرغم من المنافسة الحتمية على

مصادر الثروة بين اليهود والوثنيين، كانوا قادرين على التعايش. استخدم اليهود العرب فى أغلب الأحيان لنقل تمرهم، بينما احترم العرب مهارات وتراث اليهود، ويرونهم «قومًا ذوى أنساب وأملاك عالية، بينما لم نكن إلا قبيلة عربية، لا تمتلك أى نخيل ولا كرم، عندنا فقط الخراف والجمال»(١٨).

لكن فى وقت التقاء الحجاج بمحمد (ﷺ) فى عام (٢ ق. هـ/ ٦٢٠م)، كانت الحالة متدهورة. ظهر التنافس القبلى الراسخ على السطح، حيث انغمس الأوس والخزرج فى صراع دموى، وانشغلت العشائر اليهودية فى صراعهما، ساند بنو النضير وبنو قريظة الأوس، بينما تحالف بنو قينقاع مع الخزرج. بحلول عام (٥ ق. هـ/ ٦١٧م)، كان هناك صراع لا يمكن لأحد من الطرفين أن يكسبه، حيث استنزف العنف الجميع. وفى لحظات حاسمة، ترفع عبد الله بن أبى بن سلول رئيس الخزرج عن القتال واكتسب سمعة طيبة. البعض رأوه ملكًا محتملاً أو رئيسًا أعلى، يمكنه أن يفرض قانونًا ونظامًا، لكن العرب كانوا يكرهون الحكم الملكى، ولم ينفع هذا النوع من الحكم قط فى شبه الجزيرة. عارضت الأوس بالطبع تسليم القيادة إلى رئيس من الخزرج، بينما كان رؤساء الخزرج الآخرون غير راغبين فى التخلى عن قوتهم لحساب ابن أبى.

أدرك الحجاج الستة فورًا بأن محمدًا (ﷺ)، كناطق باسم الله، سيكون حكمًا أكثر فعالية من ابن أبى، لم يكن عندهم مشاكل مع رسالته الدينية؛ لأنه فى بعض الوقت اتجه عرب يثرب للتوحيد. كان الأوس والخزرج يشعرون ـ لمدة طويلة ـ بالنقص أمام اليهود لعدم وجود كتاب مقدس لهم، وأثار الحجاج سماع أن الله أرسل أخيرًا نبيًا إلى العرب، وأسلموا إلى الله فورًا، وكلهم أمل فى انصلاح أحوالهم. «تركنا قومنا ولا توجد قبيلة منقسمة بالكراهية والحقد مثلهم، ربما يوحدهم الله بك، لذا دعنا نذهب إليهم وندعوهم إلى دينك، وإذا وحدهم الله على يديك، لن يكون هناك رجل أعز منك». لكنهم اعترفوا بأن تأثيرهم بسيط فى الواحة، واحتاجوا لاستشارة رؤسائهم وحكمائهم. إذا كان محمد (ﷺ) سيصبح حكمًا فعالاً، كان من الضرورى أن يجمع دعمًا عريضًا، ووعدوه بالرد بعد سنة. لقد كانت تلك لحظةً حاسمة، أجبرت الظروف محمدًا (ﷺ) للنظر فيما وراء مكة، بل وحتى النظر فى الفكرة غير الطبيعية فى ترك قبيلته والاستقرار الدائم وسط قوم آخرين:

قال ابن إسحاق: فبينما رسول الله (ﷺ) عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا. قال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمن موالى يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام، أن يهودًا كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك، وأصحاب أوثان، وكانوا قد عزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم: إن نبيًا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله (ﷺ) أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. [السيرة النبوية: ص ٣٠٦، ٣٠٧][١٩].

بينما هو فى انتظار تطورات من يثرب، قام محمد (ﷺ) ببعض التغييرات فى عائلته، حيث احتاج إلى زوجة، كان هناك اقتراح أن يتزوج سودة، ابنة عم ونسيبة سهيل، الرئيس الوثنى المستبد لعشيرة عامر القرشية. كانت متزوجة من أحد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة عام (٦ ق. هـ. / ٦١٦م)، لكنها صارت أرملة وكانت ملائمة جدًا له. كان أبو بكر متلهفًا أيضًا لإقامة علاقة أقرب مع النبى، واقترح عليه أن يتزوج ابنته عائشة، التى كان عمرها ست سنوات(*). خطب محمد (ﷺ) عائشة فى احتفال لم تحضره البنت الصغيرة. وفى السنوات اللاحقة، تذكرت بأن النتيجة الأولى لمنزلتها الجديدة ظهرت عندما أوضحت أمها أنها لم تعد تستطيع اللعب فى الطرقات، لكن يجب أن تدعو صديقاتها إلى بيت العائلة.

(*) تختلف الأقوال فى سن السيدة عائشة يوم زفت إلى النبى ﷺ فى السنة الثانية للهجرة، فيحسبها بعضهم تسعًا، ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات، وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل المواليد. والأرجح أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبى ﷺ عن الثانية عشرة، ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير. [الصديقة بنت الصديق، عباس العقاد، ط دار المعارف ـ ص ٦١، ٦٢].

زوجات محمد (ﷺ) أثرن مقداراً كبيراً من التخمين الشهوانى المريض فى الغرب، لكن فى بلاد العرب، كان تعدد الزوجات أكثر شيوعًا من الزواج الأحادى، مثل ذلك الزواج الذى تمتع به محمد (ﷺ) مع خديجة. هذه الزيجات لم تنشأ عن علاقات حب رومانسية أو جنسية، لكن كانت تتم سعيًا وراء نتائجها العملية. يبدو أن سودة كانت امرأة بيتية، مضى شبابها، لكنها يمكن أن تعتنى بحاجات محمد (ﷺ). كان محمد (ﷺ) يتمنى أيضًا أن يكسب سهيلاً، الذى ما زال متردداً حول الوحى. لم تكن خطبة محمد (ﷺ) عائشة أمرًا عجيبًا(*)، حيث عقدت زيجات لفتيات أصغر من عائشة، لتوثيق تحالفات أو لغير ذلك. استمرت هذه الممارسة فى أوروبا إلى ما بعد بداية العصر الحديث، ولم يكن هناك شك أن إكمال الزواج لم يتم إلا عندما تخطت عائشة سن البلوغ، عندما كان يمكن أن تتزوج مثل أى بنت أخرى. كانت زيجات محمد (ﷺ) عادة لهدف سياسى، رغبة فى تأسيس نوع مختلف تمامًا من العشيرة، مستند على العقيدة بدلاً من القرابة، ولكن رابطة الدم كانت وما زالت قيمة مقدسة، وساعدت على تدعيم مجتمع المؤمنين التجريبى.

وفى أثناء الحج ـ عام (١ ق. هـ/ ٦٢١م) ـ عاد المسلمون الستة من يثرب إلى مكة، وجلبوا سبعة آخرين معهم. قابلوا محمداً للمرة الثانية فى العقبة، فيما أصبح معروفًا ببيعة العقبة، ووعدوا بعبادة الله وحده، والامتناع عن السرقة والكذب ووأد البنات، وتعهدوا بطاعة توجيهات محمد (ﷺ) التى تتعلق بالعدالة الاجتماعية. وفى المقابل، وعدهم محمد (ﷺ) الجنة. فى هذا الحلف الأول، كان التأكيد على الدين والأخلاق، ولم يكن هناك التزام سياسى بعد. عندما عاد الحجاج إلى يثرب، أخذوا معهم مصعب بن عمير، مسلم مؤتمن، لتعليم أهل يثرب عقيدتهم الجديدة.

> روى ابن إسحاق عن عبادة بن الصامت، قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف. «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم

(*) كانت عائشة مخطوبة لأحد رجال مكة قبل ذلك، ولكن إسلام أبى بكر أدى لفسخ تلك الخطبة.

إلى الله ـ عز وجل ـ إن شاء عذب وإن شاء غفر». [السيرة النبرية: ص ٣١٠][٢٠].

كان ذلك تحركًا حكيمًا، حيث كانت الكراهية القبلية حادة جدًا فى الواحة، فلم يكن أحد من الأوس ولا الخزرج يتحمل سماع منافس من القبيلة الأخرى يقود الصلوات أو يقرأ القرآن، لذا كان مهمًا أن يؤدى هذه الشعائر غريب محايد. فى بادئ الأمر، كانت الأوس عدائية للإيمان الجديد، لكن بشكل تدريجى كسرت قوة القرآن تحفظهم. فى أحد الأيام، ارتاع سعد بن معاذ، رئيس أحد عشائر الأوس البارزين، لسماع مصعب وهو يعظ أناسًا فى أرضه، لذا بعث مساعده لإبعاده، انقض المساعد على المجموعة الصغيرة، يلوح برمحه ويسأل المسلم من أين أتى بهذا التهور لنشر هذه الأكاذيب بين الناس الحمقى الضعفاء؟! لكن بدلاً من أن تأخذ مصعبًا حمية الجاهلية، طلب منه الجلوس والحكم بنفسه. وافق المساعد، وغرس رمحه فى الأرض، وبينما يستمع إلى التلاوة، تغير وجهه. ما هذا الحديث الرائع والجميل!، بل بكى قائلاً: كيف يمكن للمرء أن يدخل هذا الدين؟.

وبعد أن أعلن إيمانه بالله وسجد ليصلى، عاد لإخبار رئيسه. فغضب سعد، وأخذ رمحه الخاص، وذهب لمواجهة مصعب بنفسه، فقهره القرآن بدوره، فإذا به يستدعى عشيرته ويطلب منهم اتباعه بشكل جماعى:

قال ابن إسحاق: جلس أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير فى الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد ابن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتى، ولا أجد عليه مقدما، قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد ابن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال: فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما

تكره؟. قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى. فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد ابن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك. قال: فقام سعد مغضبا مبادراً، تخوفا للذى ذكر له من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتغشانا فى دارينا بما نكره؟. وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟. قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير. قال: فلما رآه قومه مقبلا، قالوا نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم

قال: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف. [السيرة النبوية: ص ٣١١، ٣١٢][٢١].

أثرت أنباء إسلام سعد تأثيرًا كبيرًا على الرؤساء الآخرين، الذين بدءوا يأخذون مصعبًا بشكل جدى. و لم تمض فترة طويلة حتى كان هناك مسلمون فى كل عائلة تقريبًا فى الواحة.

فى مكة، كاد محمد (ﷺ) أن يتوقف عن الدعوة؛ لأن قريشا كانت لا تستطيع أن تقبل أن يكون مثل هذا الشخص العادى رسول الله، لكن الظروف فى يثرب كانت مختلفة[٢٢]. لم يكن محمد (ﷺ) شخصًا عاديًا بالنسبة لأهل يثرب، وإنما عَلم غامض بعيد المنال، يتوقع مجيئه بلهفة. فى مكة، هددت تعاليم محمد (ﷺ) بإتلاف عبادة الحرم، حيث كان لها تأثير حاسم على الاقتصاد، لكنه لم يكن هناك حرم ملىء بالأوثان فى يثرب. ولكن أيضًا لم يكن كل يثربى مفتونًا بالدين الجديد. على أية حال، خاف ابن أبى على وضعه، وآخرون ما زالوا يعبدون الأوثان القديمة، أو من الأحناف، لكن صمتت المعارضة فى تلك المرحلة. إذا استطاع نبى جديد حقًا أن يحل مشاكل يثرب، قد تأتى بعض الفائدة المادية منه. أيضًا انتظرت القبائل اليهودية ماذا سيأتى من محمد (ﷺ)، خصوصًا منذ أن بجل المسلمون فى مكة أنبياءهم وتبنوا بعض عاداتهم الخاصة.

قدم محمد (ﷺ) بعض الممارسات الجديدة، ربما بعد رحلة الإسراء، حيث كان المسلمون يصلون وقبلتهم القدس، ليصلوا إلى مدينة أهل الكتاب المقدسة. أمر محمد (ﷺ) مصعبًا أيضًا بإقامة صلاة خاصة يوم الجمعة ظهرًا بينما يستعد اليهود للسبت، بالصوم مع اليهود يوم كيبور(*). كذلك صلى المسلمون فى منتصف اليوم، كما كان

(*) المقصود يوم عاشوراء، واختلفت الروايات فيه.

اليهود يصلون، واتبعوا نسخة معدلة من قوانين الطعام اليهودية، مشابهة لما كان متبعًا لدى المسيحيين الأوائل:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾، [سورة المائدة: ٣ ـ ٥]، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة النحل: ١١٥].

وجاء فى أعمال الرسل فى العهد الجديد من الكتاب المقدس: « لذلك أرى أن لا نضع عبئًا على المهتدين إلى الله من غير اليهود، بل نكتب إليهم رسالة نوصيهم فيها بأن يمتنعوا عن الأكل من الذبائح النجسة المقربة للأصنام، وعن ارتكاب الزنى، وعن تناول لحوم الحيوانات المخنوقة وعن الدم. فإن لموسى، منذ القدم، أتباعًا فى كل مدينة، يقرءون شريعته ويبشرون بها فى المجامع كل سبت»، «إنما عليكم أن تمتنعوا عن الأكل من الذبائح المقربة للأصنام، وعن تناول الدم، ولحوم الحيوانات المخنوقة، وعن ارتكاب الزنى، وتحسنون عملاً إن حفظتم أنفسكم من هذه الأمور. عافاكم الله» [أعمال الرسل ١٥: ١٩ ـ ٢١، ٢٩][٢٣].

وقد اعتقد العلماء أن محمدًا (ﷺ) قدم هذه العبادات الجديدة لإغراء يهود يثرب، لكن وجهة النظر هذه أصبحت لا تصمد للنقد، فلم يتوقع محمد (ﷺ) أن يتحول اليهود إلى دينه؛ لأنه كان لهم وحيهم الخاص. أقر الله بأن يكون لكل أمة

رسولها الخاص. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴿٤٧﴾﴾ [سورة يونس: ٤٧][٢٤]، لكنه كان طبيعيًا للمسلمين أن يصلوا ويصوموا بطريقة العائلة الإبراهيمية نفسها.

فى عام (١ ق. هـ/ ٦٢٢م)، خرج عدد كبير من الحجاج من يثرب للحج. أكثرهم كانوا وثنيين، ولكن ثلاثة وسبعين من الرجال واثنين من النساء كانوا مسلمين. خرج محمد (ﷺ) ليرحب بهم فى العقبة، لكن هذه المرة، تم الاجتماع فى سواد الليل. فى هذا اللقاء، كان هناك إحساس بالخطر وعقد تحالفات جديدة وقطع أخرى قديمة. تكلم القرآن عن مكيدة قريش. ربما كان عند محمد (ﷺ) سبب لاعتقاد أن الكافرين كانوا يخططون لطرده ومنع المسلمين من دخول الحرم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأنفال: ٣٠][٢٥].

على كل حال، كان محمد (ﷺ) يأخذ خطوات عملية لترك قبيلته ومكة. يزعم ابن إسحاق بأنه كان قرارًا إيجابيًا من ناحيته، لكن القرآن يقول مرارًا وتكرارًا بأن المسلمين «طردوا من مكة»:

> ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١]. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴿١٣﴾﴾ [سورة محمد: ١٣][٢٦].

تم الاجتماع فى العقبة فى سرية شديدة. لم يذكر المسلمون من يثرب ذلك حتى إلى الوثنيين من عشائرهم، خوفًا من أن يكشفوا ذلك وينبهوا قريشًا إلى ما كان جاريًا.

كان محمد (ﷺ) على وشك أن يقوم بعمل لم يسبق له مثيل[٢٧]، إذ طلب من مسلمى مكة الهجرة إلى يثرب، ولم يكن هذا يتضمن مجرد تغيير العنوان، إذ كان

المسلمون على وشك أن يتركوا أهلهم ويقبلوا الحماية الدائمة من الغرباء. فى بلاد العرب، حيث كانت للقبيلة القيمة الأعلى عند الجميع، ماثل ذلك الكفر بعينه، ما هو أكثر فظاعة من الرفض القرآنى للآلهة. كان هناك دائمًا نظام التحالف، حيث يمكن لأى فرد أو حتى مجموعة أفراد، أن يصبحوا أعضاء فخريين فى قبيلة أخرى، لكن كانت هذه فى العادة ترتيبات مؤقتة لا تستلزم انسلاخها من أهلها. الكلمة ذاتها «الهجرة» تعنى قطعًا مؤلمًا. هجر تعنى: «قطع نفسه من الاتصال الودى أو المحب، أو توقف عن الارتباط بهم»[٢٨]. منذ الآن، سيدعى المسلمون الذين هاجروا إلى يثرب: «المهاجرين». وهذا الانتقال المؤلم كان محور هويتهم الجديدة.

بدأ مسلمو يثرب أيضًا الإبحار فى تجربة خطيرة. حتى إذا تبنت قبيلة رجلاً من خارجها، فهو يظل دائمًا غريبًا، كلمة تضمنت معانى سلبية! «وصف الشعراء الغريب بأنه عديم الفائدة ومنتسب»[٢٩]. كان الولاء القبلى حبًا ناريًا للأهل واحتقارًا قاسيًا للأجنبى. استحق أى عربى فَضَّل الغريب على قومه إزدراء شديدًا واشمئزازًا. الآن أصبحت الأوس والخزرج على وشك أن تقسم الولاء لمحمد (ﷺ) القرشى، وتعد بالحماية والمساعدة، أى النصر، لمجموعة كبيرة من الغرباء، مما يؤثر على المصادر المحدودة للواحة. منذ الآن، أصبح مسلمو يثرب يعرفون بالأنصار. عادة تُترجم الكلمة إلى الإنجليزية بمعنى «المساعدين»، لكن هذا يعطى انطباعًا أقل بكثير مما هم مقبلون عليه، نصر يعنى أن لزامًا عليك أن تقدم مساعدتك التى قد تصل إلى حد القتال. عندما قابلوا محمدًا (ﷺ) تلك الليلة فى العقبة، قرر الأنصار عقد حلف ثان مع محمد (ﷺ) عرف بـ «بيعة المنعة».

عندما حان وقت البيعة، ترك الأنصار رفاقهم الوثنيين نائمين فى خيامهم وتسللوا بهدوء إلى العقبة، حيث قابلوا محمدًا (ﷺ) وعمه العباس، الذى كان ناطقًا باسمه. لم يكن العباس قد تحول إلى الإسلام بعد، ولا بد أنه صدم بقرار محمد (ﷺ) ترك مكة، لكنه أراد التأكد بأنه سيكون آمنًا فى يثرب. وقال إن بنى هاشم قد حموا محمدًا (ﷺ) من قبل فى مكة، لكنه كان مستعدًا للتخلى عن هذا الأمن لكى ينضم إلى الأنصار، فإذا كان لديهم أقل شك فى قدرتهم على حمايته، فيجب أن يتخلوا عن المشروع بالكامل فورًا، ولكن الأنصار ظلوا ثابتين. أخذ البراء بن معرور، رئيس الخزرج، بيد محمد (ﷺ)، وأقسم بأن الأوس والخزرج كليهما يمدون إلى

محمد (ﷺ) الحماية نفسها التى يعطونها لنسائهم وأطفالهم. لكن بينما كان يتكلم، قاطعه مساعده، وماذا لو عاد محمد (ﷺ) إلى مكة، وترك يثرب لغضب قريش؟ ابتسم محمد (ﷺ) وأجاب: «أنا منكم وأنتم منى، سأحارب من يحاربكم، وأسالم من يسالمكم».

روى ابن إسحاق عن كعب بن مالك قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله (ﷺ)، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، أم عمارة، إحدى نساء بنى مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى، إحدى نساء بنى سلمة، وهى أم منيع. قال: فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله (ﷺ)، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج. قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها: إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلم رسول الله (ﷺ)، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب فى الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذى بعثك بالحق نبيّا، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله (ﷺ)، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها، يعنى اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن

ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله (ﷺ)، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم». [السيرة النبوية: ص ٣١٤، ٣١٥][٣٠].

أقسم الأنصار قائلين: «نتعهد بالطاعة التامة للرسول، فى الرخاء والشدة، لن نخطئ فى حق أحد، وأن نصدق القول فى جميع الأحوال، وفى عبادة الله لا نخاف لوم أحد».

قال ابن إسحاق: حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن أبيه الوليد، عن جده عبادة بن الصامت، وكان أحد النقباء، قال: بايعنا رسول الله (ﷺ)، بيعة الحرب. وكان عبادة من الاثنى عشر الذين بايعوه فى العقبة الأولى على بيعة النساء. على السمع والطاعة، فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف فى الله لومة لائم. [السيرة النبوية: ص ٣٢٣][٣١].

تم صياغة البيعة بالمصطلح القبلى، وركزت على الدفاع المتبادل[٣٢]. لم تكن هناك بعد فكرة الأمة الموحدة؛ إذ ما زال الأوس والخزرج وقريش يعملون منفصلين، ولم يكن محمد (ﷺ) يذهب ليثرب كرئيس دولة، لكن ببساطة كحكم فى النزاعات بين الأوس والخزرج وكرئيس للمهاجرين من مكة. سيحكم الأنصار اثنا عشر «نقيبًا» من العشائر المختلفة. وبالرغم من أن الإسلام حقق خطوات واسعة عظيمة فى يثرب خلال سنة واحدة، إلا أن الأمة الإسلامية هناك كانت كالأمة الإسلامية المحاصرة فى مكة، وبقيت الحقيقة كذلك حتى بعد الهجرة، حيث بقى المسلمون أقلية صغيرة جدًا فى الواحة، بالنسبة للوثنيين، والحنيفيين، واليهود[٣٣]. وقد حققت بيعة المنعة توسعًا رئيسيًا للإسلام؛ حيث انتشر بين المجموعات القبلية الأخرى، لكنها لم تتسام عن الأخلاقيات القبلية بعد. كانت الهجرة مشروعًا خطيرًا، وخطوة مخيفة غير قابلة للنقض، فلم يدرك أحد كيف تنجح؛ لأنه لم يحدث شىء من هذا القبيل فى بلاد العرب من قبل.

عاد الأنصار بعد الحج إلى يثرب فى انتظار وصول المسلمين الفارين من مكة، وقد تبنى القرآن الاسم الآرامى الذى أعطاه اليهود إلى مستوطنة يثرب «المدينة»، حيث

كانت يثرب على وشك أن تصبح مدينة النبى. بدأ محمد (ﷺ) بإقناع المسلمين بالهجرة من مكة، لكنه لم يأمر بذلك؛ إذ إن أى شخص شعر بأن ذلك فوق قدرته ـ أو قدرتها ـ كان حرًا فى البقاء، لكن أثناء يوليو وأغسطس عام (١ ق. هـ/ ٦٢٢م)، خرج حوالى سبعين مسلمًا وعائلاتهم إلى المدينة، وأقاموا فى بيوت الأنصار حتى يمكنهم إقامة بيوتهم الخاصة. يبدو أن قريشًا لم تبذل جهدًا منظمًا لحجزهم، وإنما منعت بعض النساء والأطفال بالقوة من الرحيل، ورجعت بأحد الرجال، مقيدًا بجمله، فى احتفال بالنصر. ومن جانبهم، كان المسلمون حذرين أن لا يجذبوا الانتباه إلى رحيلهم، واتفقوا على اللقاء خارج حدود مكة، والسفر فى مجموعات صغيرة. هاجر عمر مع عائلته، ورحل عثمان بن عفان ورقية مع زيد وحمزة، لكن محمدًا (ﷺ) وأبا بكر بقيا حتى هاجر تقريبًا كل مسلم. لكنه لم تمر فترة طويلة حتى ترك هذا الإنشقاق الرئيسى عن مؤسسة قريش فجوات مقلقة فى المدينة، وكشف الجرح المفتوح الذى سببه محمد (ﷺ) لقبيلته، وبدت البيوت الكبيرة فى وسط مكة مقفرة ومنذرة، «أبواب تصفر ذهابًا وإيابًا، فارغة من السكان».

> قال ابن إسحاق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله (ﷺ)، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس، ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم، وأموالهم إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ وإلى رسول الله (ﷺ) إلا أهل دور مسمون: بنو مظعون من بنى جمح، وبنو جحش بن رئاب، حلفاء بنى أمية، وبنو البكير، من بنى سعد بن ليث، حلفاء بنى عدى بن كعب، فإن دورهم غلقت بمكة هجرة، ليس فيها ساكن. [السيرة النبوية: ص ٣٥٢][٣٤].

وفى أغسطس، وقبل فترة قليلة من استعداده للرحيل، مات مطعم، حامى محمد (ﷺ) المكى، فأصبح مباحًا، وحلالاً للقتل؛ فعقدت قريش اجتماعًا خاصًا لمناقشة مصيره فى دار الندوة، وقد تغيب عنه أبو لهب. أراد بعض الشيوخ إخراج محمد (ﷺ) من مكة، ولكن تغلب عليهم الذين رأوا أن السماح له بالانضمام إلى أولئك المنشقين المجردين من المبادئ فى يثرب سيكون خطرًا. وجاء أبو جهل بخطة: كل عشيرة تختار شابًا قويًا، ويقومون جميعًا بقتل محمد (ﷺ). لن يكون هناك ثأر، لأن بنى هاشم لن تستطيع مواجهة قريش كلها. وتجمعت فى تلك الليلة فرقة من الشبان المختارين بعناية خارج بيت محمد (ﷺ)، لكنهم انزعجوا لسماع أصوات

سودة وبعض بنات النبى (ﷺ) من الداخل. وكان من المخزى قتل رجل فى حضور نسائه، لذا قرروا الانتظار حتى يترك البيت فى الصباح التالى. نظر أحدهم ورأى محمدًا (ﷺ) نائمًا فى فراشه، متغطيًا بعباءته. ولم يعرفوا أنه كان قد خرج من مخرج خلفى، تاركًا عليًا نائمًا على فراشه. وعندما خرج علىٌ فى الصباح التالى، أدرك الشباب بأنهم قد خدعوا، وقدمت قريش مائة ناقة جائزة لمن يعيد محمدًا (ﷺ)، حيًا أو ميتًا.

فى ذلك الوقت، كان محمد (ﷺ) وأبو بكر يختفيان فى غار جبل خارج المدينة، حيث بقيا هناك ثلاثة أيام، ومن وقت لآخر، يتسلل إليهما مؤيدوهما ليجلبوا لهما الأخبار والمؤن. قيل إن مجموعة متعقبين مرت بالكهف، لكن لم يعبأ أحد بالنظر داخله لأن عنكبوت غطت المدخل، وجلست حمامة على بيضها. وكان محمد (ﷺ) هادئًا طوال الوقت، ولديه إحساس قوى بوجود الله. وقد أخبر القرآن كيف طمأن أبا بكر:

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

[سورة التوبة: ٤٠][٣٥].

يصر القرآن على نحو متكرر بأنه عندما يجد المسلمون أنفسهم فى ظروف صعبة أو مرعبة، فيجب عليهم أن يحافظوا على هدوئهم وسكينتهم، ولا يجب أبدًا أن يقعوا فريسة للغضب الطائش الانتقامى للجاهلية.

عندما خمدت حمى البحث عنهما، تسلق محمد (ﷺ) وأبو بكر خارج الكهف، حذرين أن يزعجا الحمامة، وركبا الناقتين اللتين أعدهما أبو بكر لرحلتهما. أراد أبو بكر إعطاء الناقة الفضلى لمحمد (ﷺ)، والذى أصر على دفع ثمنها. كانت هذه هجرته الشخصية، تضحية إلى الله، وأراد أن يتكفل بكل أعباء الحدث. دعا محمد (ﷺ) ناقته القصواء وقد بقيت ناقته المفضلة لبقية حياته. كانت رحلة خطرة، لأنه ليس فقط كان مهدر الدم، بل كان مطلوبًا حيًا أو ميتًا، لذا أخذ دليلهما طريقًا دائريًا، وتعرجوا ذهابًا وإيابًا ليبددوا آثارهم عمن يقتفيها.

فى تلك الأثناء، كان المسلمون ينتظرون وصولهما للمدينة بقلق. وكان يعيش عدد من مهاجرى مكة فى قباء، أقصى بقعة فى جنوب الواحة، وكانوا كل يوم بعد صلاة الصبح يتسلقون الصخور البركانية، ويمسحون بأنظارهم التضاريس القاحلة خارج المستوطنة بحثًا عن نبيهم. وفى صباح يوم (الاثنين ٨ ربيع الأول ١ هـ/ ٤ سبتمبر عام ٦٢٢م)، رأى أحد اليهود سحابة غبار فى الأفق وصاح بالأنصار: «بنى قيلة! لقد قدم! لقد قدم!» اندفع رجال ونساء، وأطفال المدينة لاستقبال نبيهم، ووجدوهما تحت نخلة للاستراحة.

بقى محمد (ﷺ) وأبو بكر فى قباء ثلاثة أيام، ولكن لم يصبر المسلمون فى «المدينة» (كما كان يدعى الجزء الأكثر كثافة من الواحة) على عدم رؤيته، لذا ذهب إليهم ليقرر أين يقيم. على طول الطريق، سأله الأنصار النزول والإقامة عندهم، لكن محمدًا (ﷺ) رفض بأدب لأنه كان حريصًا على البقاء مستقلاً عن المجموعات المتصارعة فى المدينة، وبدلاً من ذلك، ترك ناقته القصواء، وسأل الله أن يوجهها. فى النهاية بركت الناقة فى مكان لتجفيف التمر يمتلكه أحد الأنصار، ثم نزل محمد (ﷺ) وسمح لأمتعته أن تحمل إلى بيت قريب، ثم بدأ بالتفاوض مع المالك لشراء الأرض. وعندما اتفق على السعر، بدأ كل المسلمين العمل لبناء المسجد والمنزل النبوى. كان هذا شاقًا على المهاجرين؛ لأن قريشًا لم تتعود على العمل اليدوى، وخاصة عثمان المرفه.

لم يكن المبنى الأول فى الإسلام مهيبًا، ولكنه أصبح نموذجًا لكل مساجد المستقبل، حيث كان المسجد فضاء مفتوحًا واسعًا بما يكفى لأداء الصلاة جماعة، ويعبر عن بساطة المثالية الإسلامية المبكرة. كان السقف مدعمًا بجذوع الأشجار، ولم يكن له منبر متقن الصنع، فوقف محمد (ﷺ) على مقعد بسيط لمخاطبة الجمع. وقد عاش محمد (ﷺ) وزوجاته فى الغرف الصغيرة حول المسجد، الذى كان مكانًا للاجتماعات العامة والسياسية، وكذلك دُعى إليه فقراء المدينة لأخذ الصدقة وتناول الطعام، وربما المبيت. عبرت هذه البناية المتواضعة فى المدينة عن فكرة التوحيد[٣٦].

أراد محمد (ﷺ) أن يبين أن المقدس والجنسى والمحلى يمكن، وفى الحقيقة يجب أن تتكامل. بالمثل، يجب أن تجتمع السياسة ورفاهية المجتمع ونظامه الاجتماعى فى

نطاق القداسة. وفى إسكان زوجاته حول المسجد، كان محمد (ﷺ) يعلن ضمنيًا أنه ليس هناك فاصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة، ولا تمييز بين الجنسين.

القدسية فى الإسلام شاملة وليست مقصورة على أحد. إذا أراد اليهود والمسيحيون التعبد فى المسجد فلا مانع؛ لأنهم أيضًا جزء من عائلة الله.

اكتمل البناء فى (عام ١ هـ/ إبريل ٦٢٣م)، بعد حوالى سبعة شهور من الهجرة. أشار حجر، فى الحائط الشمالى، إلى اتجاه القبلة: القدس. فى بادئ الأمر، لم يكن هناك دعوة رسمية للصلاة، لكن لم يكن ذلك مرضيًا تمامًا، لأن كل مصلٍّ يأتى فى وقت مختلف. فكر محمد (ﷺ) فى استعمال بوق، مثل اليهود، أو صافق خشبى مثل المسيحيين المحليين، لكن أحد المهاجرين رأى حلمًا هامًا، حيث رأى رجلاً يلبس عباءة خضراء، أخبره بأن شخصًا له صوت رنان عالٍ، يجب أن يعلن الصلاة قائلاً: الله أكبر، للتذكير بالأولوية الأولى للمسلم.

أعجب محمد (ﷺ) بالفكرة، واختار بلالاً، العبد الحبشى سابقًا، جهير الصوت. كان بلال كل صباح يرتقى قمة أعلى بيت بجوار المسجد، ويجلس على السقف فى انتظار الفجر. ثم يتمطى، وقبل بداية الأذان، يدعو: «اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك».

> قال ابن إسحاق: فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتى بسحر، فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطى، ثم قال: اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك. [السيرة النبوية: ص ٣٥٨][٣٧].

ربما غير المسلمون قبلتهم إلى القدس، لكنهم لم ينسوا مكة. عندما علم محمد (ﷺ) بأن العديد من المهاجرين اشتاقوا للوطن، دعا: «اللهم اجعلنا نحب هذه البلدة بقدر ما جعلتنا نحب مكة، وأكثر».

> قال ابن إسحاق: قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله (ﷺ) «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، أو أشد». [السيرة النبوية: ص ٤٠٥][٣٨].

كان المعنى الجوهرى للهجرة أن يخلق المسلمون مجتمعًا مختلفًا، وإحدى أفكار محمد (ﷺ) الأولى كانت نظام «المؤاخاة»، حيث جعل لكل مكى «أخًا» من الأنصار

ليتجاوز المسلمون خطوط القرابة التقليدية. سرعان ما سقط الانفصال السياسى للمهاجرين عن الأنصار عندما مات أحد نقباء الأنصار الاثنى عشر، فأخذ محمد (ﷺ) موقعه[٣٩]. كان المسلمون يخلقون وبشكل تدريجى «قبيلة جديدة»، ترجمت علاقات القرابة القديمة بشكل مختلف. أولئك الذين هاجروا اعتبروا أنفسهم متميزين عن المسلمين الذين بقوا فى مكة، بالرغم من أنهم جميعًا يعودون لفصيلة الدم نفسها. ولا ينبغى للمسلمين، مهما كانت قبيلتهم أو عشيرتهم، أن يحارب أحدهم الآخر، فالمهاجرون والأنصار يجب أن يتحدوا بشكل كامل كأى قبيلة تقليدية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأنفال: ٧٢ ـ ٧٣][٤٠].

مثل القبيلة، أصبحت الأمة «جالية واحدة لكل الرجال»، وتقوم بـ «التحالف» مع الحلفاء غير المسلمين بالطريق المعتاد:

قال ابن إسحاق: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معه، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفيدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم والمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم...» [السيرة النبوية: ص ٣٥٤، ٣٥٥][٤١].

كزعيم للأمة، يمكن لمحمد (ﷺ) الآن أن يطبق إصلاحات أخلاقية واجتماعية بطريقة كانت مستحيلة فى مكة، كان هدفه أن يخلق مجتمع العدل والحلم، حيث يجب على المؤمنين أن يعبروا عن إيمانهم بطريقة عملية: يجب أن يصلوا، ويتشاركوا فى ثرواتهم، وفى الأمور التى تتعلق بالجماعة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ

بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: ٣٨] للحفاظ على وحدة الأمة، ويدافعوا عن أنفسهم إذا ما هوجموا، لكن بدلاً من أن ينتقموا بأسلوب الجاهلية القديم الذى لا يمكن السيطرة عليه، يجب دائمًا أن يستعدوا للعفو، لأن الثأر التلقائى، الواجب الأساسى للمروءة الجاهلية، يمكن أن يكون شرًا عظيمًا؛ حيث أكد القرآن، وكرر بلا كلل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴿٣٤﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٤]. ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة الشورى: ٤٠] (٤٢).

لكن هذا التحول لا يمكن إنجازه بين عشية وضحاها؛ لأن روح الجاهلية القديمة ترسخت من قبل فى قلوب المسلمين. بعد الهجرة بفترة قليلة، لاحظ أحد اليهود فى المدينة حشدًا من المسلمين، من الأوس والخزرج، يتوادون كما لو أنه لم يسبق بينهم قتال وعداوة فغضب لذلك. بدا بشكل واضح أن الإسلام جعلهم لطافًا خفافًا! طلب من شاب يهودى الجلوس قرب المجموعة وقراءة الأشعار التى تذكرهم بحروبهم المريرة. لم تمر فترة طويلة حتى اندلع التعصب العشائرى الكامن، وأمسك المسلمون بخناق بعضهم البعض. أسرع محمد (ﷺ) إليهم فى ضيق عظيم:

> قال ابن إسحاق: ومر شاس بن قيس، وكان شيخا قد عسا، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله (ﷺ) من الأوس والخزرج. فى مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. فأمر فتى شابا من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل. فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى توائب رجلان من الحيين على الركب، أوس بن قيظى، أحد بنى حارثة بن الحارث، من الأوس، وجبار بن صخر، أحد بنى سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة. والظاهرة: الحرة. السلاح السلاح. فخرجوا إليها. فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ)، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم

الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله (ﷺ) سامعين مطيعين. [السيرة النبوية: ص ٣٨٥، ٣٨٦][٤٣].

لم يلتزم كل مسلمى المدينة بالتغيير. اعتنق البعض الإسلام للمكسب المادى، كانوا يجلسون على السور، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بين بين، منتظرين نهاية هذه المغامرة الجديدة. أطلق القرآن على هؤلاء اسم «المنافقين»؛ لأنهم لم يكونوا مخلصين واستمروا فى تغيير أفكارهم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

[سورة البقرة: ٨ ـ ١٥][٤٤].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾

[سورة النساء: ١٣٧ ـ ١٤٥][٤٥].

كان زعيمهم ابن أبى، قد صار مسلمًا، لكنه بقى ممتعضًا وناقدًا للدين الجديد. كان محمد (ﷺ) يعامله دائمًا باحترام، ويسمح له بمخاطبة الجماعة كل أسبوع أثناء صلاة الجمعة، لكن من وقت لآخر تظهر على السطح عداوته المدفونة:

روى ابن إسحاق عن زيد بن حارثة قال: ركب رسول الله (ﷺ) إلى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه على حمار وأردفنى خلفه، فمر بعبد الله بن أبى وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله (ﷺ) تذمم من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم، ثم جلس قليلاً، فتلا القرآن، ودعا إلى الله عز وجل، وذكر بالله وحذر، وبشر وأنذر.

قال ابن اسحاق: حتى إذا فرغ من مقالته، قال: يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقًا، فاجلس فى بيتك فمن جاء له فحدثه إياه، ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه. وقام رسول الله (ﷺ) فدخل على سعد بن عبادة، وفى وجهه ما قال عدو الله ابن أبى، فقال: والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئًا، لكأنك سمعت شيئًا تكره، قال: «أجل»، ثم أخبره بما قال ابن أبى، فقال سعد: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكًا. [السيرة النبوية: ص٤٠٤][٤٦].

أصبح بعض اليهود أيضًا معادين للقادمين الجدد. لم يتوقع محمد (ﷺ) أن يتحول اليهود إلى الإسلام، وعداؤهم له لم يكن دينيًا وإنما سياسيًا واقتصاديًا. تدهور وضعهم فى الواحة، وإذا نجح محمد (ﷺ) فى توحيد الأوس والخزرج، لن تتكرر لهم فرصة استعادة سيادتهم السابقة؛ لذلك اعتقد ثلاث من القبائل اليهودية الكبيرة أنه من العقل دعم ابن أبى والوثنيين العرب فى الواحة الذين بقوا معارضين لمحمد (ﷺ)[٤٧]. أخبرنا المؤرخون المسلمون الأوائل أنهم أشعلوا الجدل الدينى [الكلامى] ضد آيات القرآن. ربما يعكس ذلك القول الجدل اليهودى الإسلامى أثناء القرنين الثامن والتاسع[٤٨]. كان يهود القرن السابع بالمدينة محدودى المعرفة بالتوراة والتلمود، ولم يكونوا ملتزمين تمامًا، لكنهم تعودوا على أن يروا إيمانهم مخالفًا لدين العرب[٤٩]. لم تكن فكرة نبى عربى غريبة عليهم، فقد كان عندهم نبى يدعى ابن صياد، كان مثل

محمد (ﷺ)، يلف نفسه بعباءة، وقرأ أشعاراً ملهمة، وادعى أنه كان من رسل الله[٥٠].

لكن إذا لم يتوفر لليهود جدال على أساس معرفى، فمن المحتمل أن يكون المسلمون قد واجهوا قدراً كبيراً من التعصب الدينى فى المدينة. يخبرنا ابن إسحاق بأنه كان بعض اليهود «يضحك ويسخر» من القرآن[٥١]. الكثير من اليهود كانوا ودودين، وربما تعلم محمد (ﷺ) منهم الكثير، لكن كان لدى بعض أهل الكتاب أفكار وجدها غريبة جداً فى الحقيقة. كانت فكرة دين خاص غريبة على محمد (ﷺ)، وكره النزاعات الطائفية:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة آل عمران: ٧٣][٥٢].

وانزعج من فكرة «شعب الله المختار» أو الاعتقاد بأن اليهود أو المسيحيين فقط سوف يدخلون الجنة:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١١١ـ١١٣، ١٢٠][٥٣].

ولقد تعجب أيضًا من اعتقاد بعض المسيحيين أن الله ثالث ثلاثة وأن المسيح ابن الله:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١١٦]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾

[سورة المائدة: ١١٦ ـ ١١٨](٥٤).

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾ [يونس: ٦٨]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [سورة مريم: ٨٨ ـ ٩٢].

لكنه بقي مقتنعًا بأن هذه الأفكار الغريبة كانت انحرافات لقلة ضلت عن الاعتقاد الصحيح:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾ [سورة المائدة: ٧٣ ـ ٧٧](٥٥).

ذكَّرَ القرآن المسلمين أن العديد من أهل الكتاب كانوا «أمة قائمة بالحق»:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ(١١٥)﴾ [سورة آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥][٥٦].

يجب أن يتذكر المسلمون أن لكل أمة وحيها التشريعى الخاص، لذا يجب ألا يشتركوا فى المنازعات عديمة الجدوى، وإذا هاجم أهل الكتاب دينهم، يجب أن يتصرف المسلمون بحلم، وبأدب يجيبون:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦][٥٧].

لتفادى هذا الخلاف العقيم، قرر محمد (ﷺ) العودة إلى «دين إبراهيم» مثلما فعل الأحناف، إبراهيم الذى لم يكن «يهوديًا» ولا «مسيحيًا» لأنه عاش قبل التوراة والإنجيل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)﴾ [سورة آل عمران: ٦٥][٥٨].

بعد الهجرة، بدأ القرآن يطلق لفظ «حنيف» و«الحنيفية» على المسلمين والإسلام، لكن أعطاهما معنى جديداً. تعنى الحنيفية عند محمد (ﷺ) ببساطة، استسلامًا كليًا لله. كانت هذه هى الرسالة الأصلية النقية للأنبياء، قبل أن يفسدها التعصب الطائفى. إبراهيم (ﷺ)، على سبيل المثال، لم تكن له طائفة خاصة. كان ببساطة مسلمًا، «سلم نفسه لله» و«رجل الإيمان الصافى» (حنيف): ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ [سورة آل عمران: ٦٧][٥٩]. عندما أعاد إبراهيم وإسماعيل (عليهما الصلاة والسلام) بناء الكعبة، لم

ينشئا دينًا خاصًا، لكن أرادا ببساطة أن يسلما حياتهما كلية إلى الله. وكان دعاؤهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة البقرة: ١٢٨].

طرد المسلمون من مكة بسبب التعصب الديني؛ لذا يجب أن يتفادوا كل احتكار للدين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥٩][٦٠]. بدلاً من أن يصروا على احتكارهم للحقيقة، قال المسلمون الحقيقيون:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٦١ - ١٦٣][٦١].

كان من الشرك الافتخار بتقاليد الدين بدلاً من التركيز على التقرب لله.

قبل نهاية (١٧ شعبان عام ٢ هـ/ ٢٨ يناير ٦٢٤م)، تلقى محمد (ﷺ) الوحي بينما كان يؤم صلاة الجمعة، بأن يجعل الكعبة قبلته بدلاً من بيت المقدس:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة البقرة: ١٤٤][٦٢].

لقد كانت رسالة تذكير بأنهم لن يتبعوا أي مؤسسة دينية، لكن الله ذاته، والله فقط. كان هذا إعلان استقلال. لم يكن المسلمون بحاجة لأن يشعروا بأنهم يتتبعوا خطوات الأديان السابقة. قال الله:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٥٠][٦٣].

ابتهج كل من المهاجرين والأنصار بالقبلة الجديدة، وربطتهم بشدة معًا. أحبوا جميعًا الكعبة، التى كانت لها جذور عميقة فى التقاليد العربية عن مدينة القدس البعيدة. لكن كانت هناك مشكلة؛ لأن الكعبة كانت فى مكة تحت يد الوثنيين، والعلاقات مع قريش أصبحت أكثر توترًا من أى وقت مضى.

* * *

obeikandl.com